المحور الأول : التاريخ وماهية الإنسان

المحاضرة الثالثة : التاريخ الطبيعي والتاريخ الإنساني3

هل هناك تمايز بين التاريخ الطبيعي والتاريخ الإنساني؟

و ـ نظريات نشوء الحضارات

هناك العديد من النظريات والآراء حول الحضارات وأسباب نشوئها، ومن أهمّ هذه النظريات

1 ـ نظرية فيجر :(Vigor) تتحدّث هذه النّظريّة عن وجود ثلاثة عصورٍ تمرّ بها الحضارة أثناء مراحل تطورها، وهذه العصور هي: عصر الأهلّة، وعصر البطولة، وعصر النّاس، وقد حدّد فيجر أنّ هذه العناصر تشترك فيها الحضارات أثناء نشوئها ونموّها.

2 ـ نظريّة شبينجلر(1880 - 1936) :Oswald Arnold Gottfried Spengler تحدّث الفيلسوف الألمانيّ **شبينجلر** عن الحضارة في كتابه انحلال الغرب، حيث ذكر أنّها كالكائن الحيّ الّذي يمرّ بمراحل مختلفة في حياته، من طفولة وشباب ونضوج وشيخوخة.

3 ـ **نظرية توينبي** : *Arnold J. Toynbee* (1889- 1975) (تحدّث الفيلسوف الإنجليزيّ توينبي عن الحضارة في كتابه دراسة التاريخ، حيث يرى أنّ نشوء الحضارة عائدٌ إلى استجابة الإنسان لتحدّيات الطبيعة.

4 ـ نظرية ابن خلدون: يرى ابن خلدون أنّ جميع الحضارات التي نشأت كانت في بدايتها تعيش حياة بداوة، إلّا أنّها أخذت بالتوسع شيئاً فشيئاً حتى صارت عامرةً ومزدهرةً، ومع مرور الوقت يزول هذا الملك والعمران وينتقل إلى أمم أخرى.[1]

2 ـ أسباب انهيار الحضارات

بعد الحديث عن الحضارة ومفهومها وأسباب نشوئها لا بدّ لنا من ذكر أهمّ الآراء حول أسباب انهيار الحضارات وهذه الآراء هي:

1 - **www.onefd.edu.dz**، اطّلع عليه بتاريخ 3-12-2020 على الساعة 20:30.

1 - رأي أرنولد توينبي: يرى توينبي أنّ اندثار الحضارة يكون بسبب انحلالها، وأنّ انحلال الحضارة يأتي من خلال انشقاق المجتمع أو بسبب البروليتارية الداخليّة للمجتمع.

2 - رأي شبينجلر: يرى شبينجلر أنّ الحضارة تموت بعد أن تكون قد حقّقت تطوراً وازدهاراً في شتّى المجالات الدينيّة والثقافية والفنيّة وغيرها، وفي النهاية تعود إلى ما كانت عليه قبل التطور، أي إلى حالتها الأوليّة البدائيّة، ويرى أنّ هناك عاملان رئيسيان يؤديان إلى اندثار الحضارة، وهما وجود قوة أكبر من قوة الحضارة نفسها، وكذلك أنّ هذه الحضارة قد وصلت إلى صورتها النهائيّة .

3/ الفرق بين تاريخ الإنسان وتاريخ الطبيعة : يتناول التاريخ حياة الإنسان من حيث هو إنسان، وليس موضوعه حياة الإنسان من حيث هو مجرد كائن حي ينمو ويتطور ويموت، فالإنسان هو الكائن الوحيد من بين الكائنات الحية الأخرى الموجودة على سطح المعمورة الذي يدرك معنى الزمن، وهو الوحيد ذو التاريخ أي الذي يصنع التاريخ ويصنعه التاريخ. فالمؤرخ عندما يتناول بعض الأحداث الطبيعية ـ أي وقائع الطبيعة الفيزيائية ـ مثل الزلازل والبراكين والفيضانات، فهو يهدف إلى دراسة أثر تلك الأحداث على الإنسان بالذات .[2]

إن تاريخ الإنسان لا يتوقف عند حدود ماضي الأحداث التي وقعت للإنسان فحسب، بل هناك ترابط بين الأزمنة الثلاث، الماضي والحاضر والمستقبل، على عكس التاريخ الطبيعي الذي هو تاريخ جامد وثابت. وهذا ما جعل الإنسان يهتم بالتاريخ، فهناك سببين اثنين لاهتمام الناس بدراسة التاريخ :

- السبب الأول : سبب نفسي ويعني عدم قناعة الإنسان بأن تقتصر معرفته على تلك الفترة القصيرة التي يعيشها، وحرصه على أن يتعرف على ماضي البشرية، أو بدايات بعض القضايا التي يعيشها ومن خلالها يمكنه تصور مستقبل البشرية .

- السبب الثاني : سبب عقلي ويعني تحليل واستنطاق وقائع الماضي، وهو سلوك يتميز به بعض الناس، أي أن تفكيرهم ونظرتهم تاريخية تتعدى حدود الزمن الطبيعي الثابت والجامد، فهم

---

2 ـ عادل حسن غنيم و جمال محمود حجر : **في منهج البحث التاريخي** ، مرجع سابق ، ص 22 .

بذلك يحاولون فهم وتحليل أحداث التاريخ، وصولا إلى القوانين التي تفسرها، والأسباب التي أدت إلى حدوثها. وتفسير مواقف التاريخ البارزة ، والاستفادة من تجارب التاريخ الماضية .[3] فإذا كان عالم الطبيعة بإمكانه الإلمام بطبيعة الظاهرة حين يتعرف على القانون الذي يفسر الظاهرة، فهو بذلك يلم بكل جوانب تاريخ هذه الحادثة أما الظاهرة الإنسانية فيستحيل الإلمام بكل جوانبها مهما توفرت كل الظروف والأسباب . فمن المؤكد أن معرفتنا بالماضي الإنساني ليست كاملة لأن الماضي لم يترك لنا إلا أقل القليل ، حيث لم يصلنا إلا ما تم تدوينه من قبل المهتمين، أو ما تذكره المسجلون وجذب اهتمامهم، لأن معلوماتنا على الإنسان في مختلف بقاع الأرض تختلف، وفي مختلف الأزمنة . وهذا يقودنا بالضرورة إلى الاعتراف، بأن هناك صفحات كثيرة من تاريخ البشرية مجهولة، إذ من غير الممكن التعرف على صفحات الماضي الإنساني كله . وهذا إذا انطبق على الماضي، فإنه بالضرورة ينطبق على الحاضر .[4] وعلى هذا الأساس يظهر لنا جليا مصدرين تاريخيين يعتمد عليهما المؤرخ أنا دراسته للظاهرة هما المذكرات والذكريات .

ـ فالمذكرات هي التي يقوم أصحابها بتسجيلها أو إملائها يوم بيوم أو في وقت قريب من وقوع الأحداث ، وهذه تنال من المؤرخ قيمة خاصة .

ـ أما الذكريات فهي التي يكتبها أصحابها بعد مرور وقت غير قصير على وقوع الأحداث، والتي تتأثر كثيرا بعامل النسيان، فضلا عن تغير المشاعر، ليخفي أصحابها بعض المعلومات، أو يضفي على نفسه أدوار بطولية، أو يقلل من جهود الآخرين . وعليه وجب على المؤرخ حين الاعتماد على الذكريات تحري الدقة في الاعتماد عليها .[5]

ـ تتميز الحادثة التاريخية بأنها حادثة إنسانية اجتماعية، ذات معنى ومفردة لا تتكرر. فهي إنسانية لأن التاريخ هو ما حدث للإنسان مثال الزلازل وأثرها على الإنسان. واجتماعية بمعنى أن الإنسان بقيمته الاجتماعية، فكل حادثة تاريخية تحمل معها هويتها الاجتماعية، فالبطل التاريخي نجاحه وفشله مرتبط بالمجتمع. والبطل الذي يصنع التاريخ هو بطل صنعه التاريخ.

---

3 ـ المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

4 ـ عادل حسن غنيم و جمال محمود حجر : **في منهج البحث التاريخي** ، مرجع سابق ، ص ص 22 ـ 23 .

5 ـ المرجع نفسه ، ص 23 .

ذات معنى :لأن الإنسان هو الكائن الوحيد المتميز بالفعل الإرادي الواعي خلافاً لبقية الأنواع الأخرى، فالأهرام بنيت لأهداف، وإذا عريناها من قيمتها الإنسانية لا يبقى لها أي قيمة تاريخية، حيث تصبح كتلة مادية لا تفيد إلا في المجال الهندسي. فهي تصور نظرة الإنسان إلى الوجود وعودة الروح. مفردة لا تتكرر :هذا يعني أنها لا تحدث إلا مرة واحدة محدودة بزمان ومكان وبظروف ودوافع لا تتكرر مثل الثورة الفرنسية. وفي هذا السياق يقول **"ماكس فيبر"** (1860-1920" :« إن الحادثة التاريخية هي ما يحدث مرة واحدة باعتبار المعنى الذي جال في نفوس الأفراد حين اختاروا سلوكهم ذاك الذي سلكوه في سياق تلك الحوداث .» وانطلاقاً من هذا يختلف الحادث الطبيعي عن التاريخ، إذ الأول جاهز، أما نكبة البرامكة، مثلاً، فهي حادثة مضت ولن تعود. بمعنى أن الحوادث الطبيعية تقع خارج الزمان كما يقولون، أما الحوادث الإنسانية فهي تقع في الزمان، زماننا البشري الذي لا نحياه مرتين.

4 ـ الفرق بين القوانين التاريخية والطبيعية:

من الواضح أن القوانين في العلوم الطبيعية قائمة، لكنها تكتشف يوماً بعد يوم، فإن ذلك ما يحدث في العلوم الاجتماعية والإنسانية ولكن بطريقة أبطأ بكثير. وفي رأي محمد كامل حسين أن من أهم الفروق بين القوانين التاريخية والطبيعية:[6]

1 ـ الزمن: مهم في الدراسة التاريخية وغير مهم في الدراسة الطبيعية.

2 ـ النتائج: العوامل المتشابهة في العلوم الطبيعية تؤدي إلى نتائج متشابهة مهما اختلف الزمان والمكان، لكنها غير ذلك في التاريخ.

3 ـ **القوانين** : إن القوانين في العلوم الإنسانية ليست لها صفة الأبدية. وتغيرها أسرع من نظيرتها العلوم الطبيعية. ففي العلوم الإنسانية لا يعني القانون نتيجة محددة دائماً، وإنما يعني نتيجة تقديرية أو قاعدة عامة.

لقد بيّن ابن خلدون في الدولة والحضارة، أن الدول كالبشر تولد، تنمو، تكبر ثم تضمحل وتموت، والحضارة تتعاقب عليها ثلاثة أطوار: بداوة، حضارة، ثم انحلال، وهذا منذ خمسة

6 ـ مالك بن نبي: **ميلاد مجتمع**، دار الإنشاء، طرابلس ، لبنان، ط2، 1974، ص ص 15 ـ 16.

قرون. حيث أن أرنولد توينبي تبنى الحضارة عنده على قانون التحدي والاستجابة، بمعنى الظروف القاسية هي التي تحفز الإنسان على العمل والإبداع، وكلما ازداد التحدي تصاعدت قوة الاستجابة، ورغم أنها تنطبق على شعوب معينة ومراحل محددة، إلا أنها تعتبر خطوة على الطريق نحو القوانين الدائمة، التي يتوقع التوصل إليها مستقبلاً، ومثال ذلك العلاقة الدائمة بين الاستعمار العالمي والحركة الصهيونية. فالحكم الاستبدادي قد يبني أمة أو مرحلة تاريخية، ولكن لا يبني الإنسان .

إن الشعوب التي تكثر تناقضاتها الاقتصادية والاجتماعية والدينية يسهل الوصول إلى حكمها وتصعب قيادتها، أما الشعوب التي تقل تناقضاتها فيصعب الوصول إلى حكمها وتسهل قيادتها.

5/ الظاهرة التاريخية وقوانين العلم :

لقد اختلف المؤرخون والعلماء منذ أواخر القرن التاسع عشر حول علمية التاريخ، ما إذا كان علما أم لا، على اعتبار أن العلم يعني المعرفة و الإدراك بالشيء على ماهو عليه، أي دراسة موضوع معين وفق طريقة ثابتة توصل إلى مجموعة ثابتة من المبادئ والقوانين المنبثقة عن القضايا الكلية والحقائق العامة المستنبطة من الجزئيات. غير أن القانون هو الارتباط القائم بين عدد من الظواهر سواء كانت طبيعية أو اجتماعية أو غيرها .[7] لكن ماهو معلوم هو الاختلاف الحاصل بين الظاهرة الطبيعية والظاهرة التاريخية في بنية الوقائع، فهل يمكن في الظاهرة التاريخية إيجاد ارتباط بين ظواهر مختلفة لنصل إلى القانون الذي يجمع بين هذه الجزئيات مثل ماهو الشأن في الظواهر الطبيعية ؟ و هذا ما طرح إشكالية علمية التاريخ .

يذهب البعض إلى أن التاريخ لا يرتقي أن يكون علما، لأنه يصعب علينا إخضاع الحادثة التاريخية للمشاهدة و والفحص والاختبار والتجربة واستخلاص النتائج والتوصل إلى القوانين التي تفسرها . في حين يرى فريق آخر أن التاريخ علم، لكن ليس علم تجربة واختبار، بل هو علم نقد وتحقيق يهدف إلى الوصول إلى الحقيقة التي تفرض الالتزام بقوانين الموضوعية، غير أننا لا يمكن أن نحصل في النهاية على قوانين ثابتة تفسر الظاهرة التاريخية، لأن الظاهرة التاريخية

7 ـ مجمع اللغة العربية : **المعجم الفلسفي** ، مرجع سابق، ص 145.

ماضية والزمن الماضي يمر ولا يعود بأحداثه و زمانه وأبطاله ، مما ينجر عليه استحالة الربط بين أجزاء الظاهرة التاريخية .[8] في حين يظهر فريقا ثالثا من العلماء يعتبر التاريخ علم كغيره من العلوم الأخرى، يمكن أن نربط بين مختلف الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تقودنا حتما إلى قانون تاريخي لم نصل إليه بعد، لذلك كانت آراء بعض المؤرخين في ذلك كما يلي :

ـ **شاكر مصطفى** : يرى أن عدم التوصل إلى قوانين في التاريخ لا يعني أنه ليس علم بل قد نصل إلى هذه القوانين بقفزة نوعية مثل ماهو الحال مع قوانين انشطاين في مجال العلم الطبيعي، وهذا لم يمنع من العمل المتواصل من قبل المؤرخين على مر الأزمنة من جمع المادة الأولية وتنسيقها، وهذا نصف العلم . إذ أن القوانين في الظواهر الطبيعية قائمة لكنها تكتشف يوما بعد يوم ، وهو ما يحدث في العلوم الإنسانية والاجتماعية ، لكن بوتيرة اقل سرعة ، مقارنة بنظيراتها في العلوم الطبيعية . فالتاريخ الطبيعي يتعامل مع مواد وعناصر معينة، أما التاريخ الإنساني فيعالج الإنسان، الذي يتميز في تصرفاته وسلوكاته بالتغير الدائم. وهذا يا يوحي بعدم التشابه بين تاريخ الإنسان وتاريخ الطبيعة .

ـ **محمد كامل حسين** : يؤكد على جملة الفروق بين التاريخ الإنساني وتاريخ الطبيعة في ما يلي :

1/ الزمن عامل أساسي في حركة العلوم الإنسانية، لكن العلوم الطبيعية عندما تبحث عن طبيعة الإنسان قد لا تهتم بدراسة أثر الزمن على الإنسان .

2/ العوامل المتشابهة تؤدي في العلوم الطبيعية إلى نتائج متشابهة مهما اختلف الزمان والمكان، لكن الأحداث المتشابهة في العلوم الإنسانية تؤدي إلى نتائج مختلفة .

3/ التفصيلات في العلوم الطبيعية تكون صادقة دوما، أما القضايا العلمية العامة تكون موضع شك، لكن تفصيلات العلوم الإنسانية ليس بالضرورة أن تكون صادقة أو محققة، لكن حقائقها الأساسية تكون صادقة وواضحة .

---

8 ـ عادل حسن غنيم و جمال محمود حجر : **في منهج البحث التاريخي** ، مرجع سابق ، ص ص 25 ـ 26.

4/ القوانين في العلوم الإنسانية ليست لها صفة الأبدية، بل تتغير نسبيا مثل القوانين الطبيعية لكن أكثر سرعة في التغير منها . فالقوانين في العلوم الإنسانية ليست مضبوطة بل تقديرية .

- **ابن خلدون** : وضع قوانين للظاهرة التاريخية، انحصرت في اعتبار الدول كالبشر تولد وتنمو وتكبر ثم تضمحل وتموت، والحضارات تتعاقب عليها ثلاثة أطوار، بداوة وحضارة واضمحلال .

- **هيجل** : يرى أن التاريخ هو تاريخ الفكر، ويجب التركيز على ما كان القادة والزعماء يفكرون فيه حين أقدموا على أعمالهم، وليس التركيز على ما قاموا به من أعمال، وان القوة التي تدفع التاريخ هي قوة العقل، حيث كل ما يحققه الإنسان يكون وفق إرادته وحريته والحرية هي العقل .

- **كارل ماركس** : اهتم في دراسة حركة التاريخ بالعامل الاقتصادي، لان التاريخ هو الأعمال في نظره، والإنتاج والنشاط المادي هو يخلق المجتمع والعلاقات الاجتماعية ومنها تتولد الأفكار والمبادئ (التفسير المادي للتاريخ) .

- **ارنولد توينبي** : يرى أن تكوين الحضارات يخضع لقانون التحدي والاستجابة، أي الظروف الطبيعية القاسية هي التي تحفز الإنسان على الإبداع . [9]

9 - عادل حسن غنيم و جمال محمود حجر : **في منهج البحث التاريخي** ، مرجع سابق ، ص ص 27 - 28.